

لذلك لا يصلح أساساً للمعرفة العلمية، لأن ما نعرفه
على يقين منه هو ما نفعله، إذن الفعل الإنساني وليس
الثاني أو المعرفة النظرية التي تسبق الفعل، هو مبدأ
علم التاريخ (١٠).

وهذا يعني أنه يجب التفرقة بين حقيقة يتم الوصول إليها
بتطبيقات رياضي، وأخرى يتم الوصول إليها بالكشف
تفريع من خلال التجربة كما هو الحال في العلوم الطبيعية،
لأنه لا يعني أن التاريخ يتشابه مع العلوم الطبيعية في هذا
المعنى، لأن الإنسان يفسر الظواهر الطبيعية، فهي حين تكون
ظواهر تاريخية من صنع، ثم يفكر فيما يصنع، والمقصود أن
الإنسان يصنع التاريخ، ثم يفكر فيه ويهتم بدراسته.

إن دراسة التاريخ عند فيكو تختلف عن دراسة العلوم
الطبيعية والرياضية، فالتاريخ من فعل الإنسان، والطبيعة من فعل
الله، والإنسان يفسر ما لا يستطيع فعله، ويفعل ويفكر فيما يفعل،
والحقيقة في الطبيعة خارجية، وفي التاريخ تتصل بطبيعة الإرادة
الإنسانية، لأن المؤرخ إنسان يستطيع أن يستوعب فعل الإنسان
الأخر، وإن يفهم حقيقة الأحداث التاريخية التي هي من فعل إرادة

الإنسان.
١٠
١١
١٢
١٣
١٤

نقد حذو فيكو منهج علم التاريخ مستقلا عن العلوم الطبيعية والرياضيات وانتقد فلاسفة السياسة. لأنهم فسروا الماضي من أجل أهدافهم ومصالحهم الذاتية، وكانت تعوزهم الحاسة التاريخية فتصورهم المجتمع ثابتا لا يتغير من عصر لآخر، وافترضهم أن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان^(١)، كما انتقد المنهج الفلسفي التركيبي في دراسة التاريخ وأقر إن المنهج التكويني للتاريخ هو اللازم لتتبع تطور المجتمعات الإنسانية، لأن تلك المجتمعات قد مرت عبر مراحل بدائية ثم تطورت عبر الزمن إلى ما هي عليه اليوم، هذا يقودنا إلى القول إن فيكو آمن بفكرة التطور والتقدم في التاريخ، والتي وجدناها لأحقا عند الكثير من فلاسفة التاريخ أمثال هيغل. وبناء على ذلك تختلف وجهة النظر إلى التاريخ من عصر لآخر، لأن التاريخ في تقدم مستمر مع

الزمن
تأثيره

لقد كان تأثير فيكو بالمنهج الفلسفي كبيرا جدا، فالنظرة الكلية للتاريخ عنده استمدتها من الفلسفة، فضلا عن تأثيره بالمثالية الإفلاطونية، خاصة في مجال العناية الإلهية، لذلك نجد أثرها واضحا في نظريته إلى التاريخ، كما إن دراسته للغات القديمة ساعده على كشف أسلوب الحياة والتفكير لدى تلك المجتمعات لارتباط الألفاظ بالمعاني، حين يرى أن الألفاظ المستخدمة حتى

الآن نرجع جذورها إلى صور من الحياة والتجربة البدائية
 للإنسان، فليست اللغة أداة لتوصيل الأفكار فقط، إنما تطورها
 وثيق العلاقة مع تطور الفكر الإنساني، وأن الأساليب اللغوية
 المتطورة عبر الزمن تدل على تطور فكر الإنسان خلال عصور
 التاريخ، وإذا أردنا معرفة طريقة حياة شعب ما، لا بد من دراسة
 تطور لغته وتفسيرها وتتبع التغيرات التي طرأت عليها.

لقد نظر فيكو إلى التاريخ كلا واحداً، هو تاريخ الإنسانية،
 والذي قاده إلى ذلك التصور، إنه رأى إن مراحل تطور التاريخ
 مشتركة بين الأمم والشعوب فضلاً عن تشابه الحقب التاريخية
 للشعوب المختلفة، وإن الأسباب التي توافرت لهما في عملية
 الإنجاز الحضاري متشابهة، ومن الممكن أن نستقرئ الأحداث في
 واحدة منها قياساً إلى الأخرى، وضرب مثالاً على ذلك في قوله
 إن عصر هوميروس في المجتمع اليوناني يشبه من حيث الإنجاز
 الحضاري ودوافعه ونتائجه العصور الوسطى في أوروبا^(١٢)، كما
 إن تلك العصور المتشابهة مرت بمراحل التطور نفسها من حيث
 الوضع الاجتماعي لهما، وطريقة تطورها وتقدمها عبر الزمن،
 أما مراحل الحضارة عنده التي مرت بها تلك الشعوب فهي ثلاث:

(بدائية، تحضر، تدهور)^(١٣).

أ. ح. ح.

نستنتج مما تقدم إن فيكون اعتمد على المنهج التجريبي فسي
التاريخ، متأثراً بالفيلسوف التجريبي (فرانسيس بيكون) وأراد أن
يفعل كما فعل بيكون من تنظيم المادة المعطاة سواء أكانت طبيعية
أم تاريخية، وباستخدام المنهج التجريبي الاستقرائي^(١٤). لقد عس
فيكون المؤرخين عرضة لأوهام توقعهم في الخطأ عندما يبحثون
في التاريخ، وهذه الأوهام هي:-

١. وهم التوهيل والتفخيم: إذ يقوم المؤرخ بتمجيد ماضي الأمة،
والمبالغة في تعظيمها وما أنجز في تلك الحقبة من إنجازات على
الصعيد المادي والمعنوي، في الوقت الذي كان عليه أن يدرك إن
قيمة مرحلة ما من مراحل التاريخ ليست بمقدار ما تم فيها من
إنجاز، إنما حسب الفعل المؤثر الذي أدته في المسار العام
للتاريخ^(١٥).

٢. وهم الثقافة الأكاديمية (غريور المتعلمين): إن ميزان القيم
التي تتحكم في حياة المؤرخ، يختلف عن ميزان القيم الذي يحكم
حياة الشخصيات التاريخية التي يدرسها، فكثير من المؤرخين
يتصور نظراً لأنه متعلم ومتقف أن الشخصيات التي أدت دوراً
في التاريخ وتحكمت بمصير الكثير من الشعوب لأبد أن تكون
على درجة عالية من التعليم والثقافة، وهذا وهم لأن الكثير من

بنت التي أثرت كثيراً في حياة الشعوب من أقل الناس علما

خاصة

التعاقب العلمي للأمم ((التشابه في الإنجاز العلمي بين
 الاعتقاد بأنه إذا التزمت أو تشابهت أمتان فسي فكرة
 نظام ما، فلا بد أن تكون إحداهما أخذت عن الثانية تلك
 وهما، لأن ذلك يعني إنكار للطاقة الإبداعية للعقل
 في الابتكار، تلك العقلية التي باستطاعتها الكشف عن

شيء من دون أن تتعلمها نقلا عن غيرها (١٧).

علم الأثرية: وهو اعتقاد المؤرخ أن السابقين من العلماء
 طامعاً، نسبة إلى العصور قريبة العهد بعصرهم، وسبب
 لهم هو تصور التاريخ بوصفها ذاكرة للإنسان، فكلما كان
 التذكر أقرب عهداً كان أكثر ثباتاً ووضوحاً في الذاكرة،
 علم الحفريات والتنقيبات أثبت إن العلماء في العصور التي
 فيها أكثر علما من سابقهم بسبب ما توصل إليه علم الآثار في
 كشف عن تاريخ المجتمعات القديمة، وتزويدهم بمعلومات جديدة
 لم تكن معروفة عند السابقين لهم.